عظماء قهروا اليأس
أحمد عرابى
يوسف الحمادى

عظماء قهروا اليأس

أحمد عرابي

بقلم

يوسف الحمادى

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

(١)

مولد الطفل أحمد عرابى

على مقربةٍ من الزقازيق عاصمةِ الشرقية تقع قرية صغيرة ، تسمى « هرية رزْنة » .. كانت هذه القريةُ فى النصف الأول من القرن التاسعَ عشرَ تعيش فى صمتها وعزلتها ، لا يترددُ اسمُها على الألسنة ، ولا يعرف أكثرُ الناس اسمَها ، وكانت حياة الفلاح فيها كحياته فى غيرها من قرى الريف المصرى البائس .. جلبابٌ أزرقُ سليم أو ممزق ، ورِجْلان حافيتان أو فى نعلٍ خشنٍ من جلد البقر ، يجففه الفلاح ويسويه بيده ، وجسمٌ نحيل معروقُ العظام ، تبدو عليه مظاهرُ الجهد وسوء التغذية ؛ فهو يعملُ فى الليل والنهار ، ثم تعود ثمارُ عمله على أصحاب الأرض التى يزرعها لهم ، فإذا زرع شيئاً منها لنفسه وقعَ فريسةً للملتزمين الذين يجمعون الضرائب ، يستغلونه ويُلهبون ظهرَه بالسّياط إذا تلكأ أو راوغ أو عجز عن أداء ما فُرِضَ عليه .

ومع الجوع والبؤس اللَّذيْن يعيشُ فيهما هذا الفلاحُ ظلامٌ غالبٌ من الجهل ، وأوبئةٌ فتاكةٌ تهدد حياتَه وحياةَ أولادِه ، وكوارثُ من الجراد والجفاف والفيضان تقضى على زرعه ... ولم يكن يَشِذُّ قليلا عن هذا اللون السائد من العيش إلا فئةٌ قليلةٌ من الفلاحين ، لانت لهم الحياةُ بعض اللِّين ، ولم تَقْسُ عليهم هذه القسوةَ الأليمة .

ومن هؤلاءِ الفلاحُ المتفتح « محمد عرابى » والد الفلاح البطل « أحمد محمد عرابى » الذى يتحدث هذا الكتاب عن شىءٍ من بطولته وعظمته ، كان هذا الوالدُ يقرأ ويكتب ، وله حظُّه من الثقافةِ الدينية ، ومن الخبرةِ بالناس والحياة ، كما كان له حظُّه من قوةِ الشخصية ، وشرفِ النسب ، والميلِ إلى مساعدة الفلاحين والدفاع عنهم ؛ ولهذا اختارته عشيرتُه فى « هرية رزنة » شيخَ حصةٍ لها ، وساعد ذلك على اتصاله برجالِ الشرطة والإدارة ، ومعرفةِ الكثيرِ مما يتصل من قريبٍ أو بعيدٍ بالسياسةِ وأخبارِ الولاة والحكام .

وكان مما وعته ذاكرتُه عن « محمد على » أن مصرَ هى التى جعلته والياً عليها ، فقد ثار أبناء هذا البلدِ الطيب على الحاكم التركىِّ الذى ولَّاهُ الخليفةُ العثمانىُّ عليهم ، وعزلوه عن منصبِه ، وجاءوا



صورة لمحمد علي يلبسه المصريون الكرك والقفطان وينادون به واليا عليهم

« بمحمد على » ، فألبسوه « الكرك » والقفطان ، وهتفوا به واليًا على مصر ، وكان فى مقدمتِهم الزعيمان الشعبيان الكبيران : عمر مكرم ، وعبد الله الشرقاوى .... ومع ذلك نَسِىَ هذا الوالى جميل المصريين عليه وعلى أسرتِه ، وفَضَّلَ الأتراكَ عليهم ..

ومما وعته ذاكرة هذا الفلاح أيضا أن الوالىَ الجديدَ كان شديدَ الطموح يتعلق بخياله وراء أبعد الآمال ، فقد كان يحلُمُ بأن يكون صاحبَ إمبراطورية كبيرة ، قاعدتُها مصر ، يتربَّعُ على عرشها ، فلا يَشرَكُه أحدٌ ، ولا ينازعهُ منازع ، وأنه فى سبيل هذا الحُلْمِ أراد أن يتخلَّص ممن يخشى منازعَتَهم له من المماليك ، فأولم لكبارهم وليمةً فخمةً فى القلعة ، دعاهم إليها ، فتسارعوا يظنون أنهم مدعوُّون إلى حفلِ تكريمٍ رائعٍ مهيب ، ولمَّا تكاملَ عددُهم فيها غُلِّقَت أبوابُ القلعة ، وانهال عليهم جنودُ الوالى ، فذبَّحُوهم فى أشنعِ مجزرةٍ عرفها التاريخ .

ومما وعته ذاكرته كذلك أن هذا الوالىَ حين فَرَغ من المماليك اطمأن ، وجدَّ فى إنشاءِ جيشٍ ضخمٍ يهيىءُ له إقامةَ الإمبراطوريةِ التى يحلمُ بها ، وسخَّر كلَّ مواردِ البلاد لذلك ، ولكن مدارسَه الحربية كانت وقفًا على الأجانب من الأتراك والشركس والأرمن

واليونانيين والأرناءود .. وكان « محمد عرابى » يكرهُ أيامَ عباس الأول حفيدِ محمد على ، ويذكرُ أن عصرَه كان عصرَ ظلامٍ وانتكاس ، وأن الفترةَ التى قضاها فى الحكم بين سنتى (١٨٤٨ ، ١٨٥٤) كانت فترةَ هدمٍ وتخريب ؛ فقد كان مسرفًا فى جهله وتعصبِه ، فأغلقَ الكثيرَ من معاهدِ التعليم ، ومن المدارس الحربية ، وجعل اللغَةَ التركية هى اللغةَ الرسميةَ للدولة ، ونقل عددًا من علماء مصر إلى السودان ، وبذلك أطفأَ البقيةَ الباقيةَ من الشعلةِ التى كان قد أضاءها جَدُّه .. كل هذا كان يعرفُه هذا الفلاح ، ويذكرُه فى دهشة وألم .

ويحكى أهلُ « هرية رزنة » عنه أنه كان من « الأشراف » الذين ينتسبون إلى بيت النبىِّ ﷺ ، ويعتزُّ هو بهذا النسب ، ويحتفظُ بسلسلتِه التى تمتد من جدٍّ إلى جدٍّ ، حتى تنتهىَ إلى الحسينِ بن السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنه وعنها .

ومن أجدادِه فى هذه السلسلةِ السيدُ صالح البلاسى ، وهو — كما تذكر أسرةُ عرابى — من « بلاس » إحدى القرى ببطائح العراق ، وأولُ من قدِمَ من أجداده إلى مصر ، وقدَ أعجبتْه ، فاستقرَّ بها ، وتزوج من السيدة صفية شقيقة السيد أحمد الرفاعى الصيادى .

وإذا صح هذا النسبُ كان الرجلُ عَربيًّا ، ينتمى إلى البيتِ النبوى ، وله من خُلُقِه الطيبِ ما يوحى بذلك ، فهو متدينٌ ، صافى النفس ، شفيقٌ بأهل قريته ، حريصٌ على السعيِ فى خيرها .. ومن مآثرِه فى قريته أنه أنشأ بها كُتَّابًا لتحفيظِ القرآن الكريم ، وتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، وجدَّد مسجدَها ، ورتَّب فيه دروسَ الفقه بعد صلاتى العصرِ والعشاء .

* * *

فى هذا الجو الذى عاشت فيه « هرية رزنة » ، وفى ظل الفلاح الطيب المتفتح « محمد عرابى » وُلِدَ الطفلُ « أحمد محمد عرابى » ، وكان ذلك فى مارس سنة ١٨٤٨ .

وتلقاه أبوه كما تلقى أخاه « محمدا » من قبله ، وكما يتلقى الفلاحون أطفالَهم .. شكر الله على نعمتِه،وحَمِدَه على سلامة زوجته ، ثم تركها للنساء يعتنين بها ، وانصرف إلى حياته التى ألفها فى القرية ، ولم يقدِّر أن هذا الوليدَ الذى أهلَّ عليها سيصبحُ من زعماءِ مصر ، وممن كان لهم أثرٌ بارز فى حياتها وتاريخِها الحديث .

* * *

(٢)

حظ الطفل من التعليم

تفتحت عينا الطفل « أحمد عرابى » على الحيـاةِ فى بيت أسرته ، فرأى بيئةً ريفيةً خالصة ، فيها الحظيرةُ والماشية ، وفيها المحراثُ والنورجُ والطنبورُ وغيرُها من آلات الزراعة ، وبها من يحلُب ، ومن يرعى ، ومن يزرع ، ورأى فى أبيه فلاحًا أصيلا ، واعيًا ومتفتحا ، له خبرتُه وثقافته ومكانته فى « هرية رزنة » ، وشاهد مجالسَه مع الفلاحين ، وبين رجالِ الإدارة ، بما له فيها من هيبةٍ ووقار ، وصوتٍ واضح عال ، ورأيٍ صائب يدل على ذكاءٍ وفهم وتقديرٍ لما يعانى الفلاحون من حوله .. وصفه ابنـه فى مذكراته ، فقال عنه :

« كان شيخًا جليلًا ، عالما ورعا ، تقيا نقيا ، موصوفًا بالعِفَّة والأمانة » .

وانتقلت عينا الطفل من بيئته فى دار أبيه إلى القريةِ ، بما يتهددُها من بؤسٍ ، وأمراضٍ ، وحياة مَهينةٍ ذليلة ، وأثَّرَ ذلك كلُّه فى عقله

ومشاعره ، فنشأ صريحًا ، ذكيا ، عزيز النفس ، عطوفًا على البائسين .

وشب بين أمثالِه من أطفال « هرية رزنة » ، فلاحًا صغيرًا ، يشرَكُهم فى لعبهم ، وسباقهم ، ومغالبةِ بعضِهم لبعض ، ويقدِّمونه على أنفسهم ، لأنه ابنُ شيخ القرية ، ولأنه يحبُّهم ، ولما يمتاز به جسمُه من امتلاء فى قوةٍ وصلابة .

وكان يذهبُ معهم إلى الكتَّاب الذى أنشأه أبوه ، ومعه لوحُه وقلمُه ودواتُه ، فيجلِس ، كما يجلسون على الأرض ، أو يكرِّمه فقيهُ الكتاب وبعضَ النابهين ، فيُجلِسُهم على الحصير ، ويردِّدُ مع الأطفال ما يتلو عليهم الفقيهُ من آياتِ القرآن الكريم ، ويكتبُ فى اللوح ما يكتبون ، ويحفظ ما يؤمرون بحفظه ، وكثيرًا ما يسبِقُهم لقوة حافظتِه ، فينتقل به الفقيهُ إلى جديدٍ من التلاوة والحفظ ، ولا يقف به حيث يقفون ، ويشتد إعجابُه بالطفلِ ، فيحدثُ والدَه أكثرَ من مرةٍ عن ذكاء طفله ، وسبقِه فى التلاوة ، وعن ظاهرةٍ أخرى تميز بها ، ودلت عليها إجاباته الواضحةُ المقنعة ، وهى « الفصاحة » ، كما كان يسميها فقيهُ الكتاب و « عريفه » به .



الطفل فى الكتاب يتلو القرآن

ولم يقنع الأبُ بما يتلقى ابنُه فى الكتاب ، فعهِد إلى صرافِ القريـة أن يعلمـه الحسابَ ، فعلمـه غير قليـلٍ من أساسياتِـه وقواعِده ..

* * *

وقد استفاد الطفلُ من دراستِه فى الكُتَّاب أكثرَ من غيره ، لذكائِه وقوةِ ذاكرته وسلامةِ منطقِه وتعبيره ، فازدهى به أبوه ، وأفاض فى الحديث عن مواهبه لأصحابه وجلسائِه ، وعزم على أن يُعْنَى ، بهذا الطفل ويمهدَ له السبيلَ لكى يتابعَ دراسته .

ولكن الصغيرَ اصطدم صدمةً قوية .. لقد مات أبوه وهو فى الثامنة ، وكان هذا الأب يعطيه دفعةً قوية ، تزيدُ من حماسته ، وثقتِه بنفسه ، وأمله فى حياةٍ أفضل .

ظن الطفل أن أخاه محمدا سيهملُه ، مع ما كان يظهره هذا الأخ من حسن الرعايةِ له ، وشدة الاهتمامِ به .. ولهذا قضى الفترةَ الأخيرةَ فى الكتاب ، ونفسه ترددُ بين الثقةِ فى أخيه والخوفِ من إهماله له .

وأخيرا اطمأن قلب الطفل ، فقد وفى له أخوه ، وزاد من العناية به فى الكتَّاب وعند صراف القرية ، حتى تهيأ لدخول

الأزهر ، فبعث به إليه .. وفى الأزهر قضى الصبىُّ أربعَ سنوات ، حصَّل فيها قدرًا صالحا من علوم اللغة والدين ، وازدادت بها قدراتُه نموا ، وثقافتُه اتساعا ، ولسانه قدرةً على الحديثِ والحوار والإقناعِ والتأثير .

وبينما هو فى دراسته إذ شاع بين رجال الإدارة فى القرى أن « سعيدًا » ، الذى جاء بعد عباس الأول سنة ١٨٥٥ ، عازمٌ على النهوضِ بالجيش ، وعلى قبولِ أبناء المشايخ والأعيان به ، حتى يرتفعَ مستواه ، فيزدادَ تقديرُ الناس له .

سمِع الأزهرىُّ « أحمد عرابى » بهذا النبأ ، فراح يتدبر أمره ، وكان طموحًا منذ صِغَره ، فإذا سأله سائلٌ ما يريد أن يكونَ فى مستقبله قال : أريدُ أن أكونَ مثلَ مدير المديرية .. فكر ، وفكر ، فهداه تفكيرُه أن طريقَ الأزهر طويل ، وأنه لا يحقِّق طموحَه ، فعزم على أن يقطعَ دراسته به ، وتقدم إلى الجيش ، فقبِلَه ، وانضم إلى من يعملون فيه .

* * *

(٣)

الفتى فى صفوف الجيش

وقفت دراسةُ الفتى عندما حصَّله فى الأزهر ، ولكن ثقافتَه لم تتوقف ، فقد كان يقرأ ، ويمتاز فى قراءته بالسرعةِ والفهمِ ، وقـوةِ الذاكرة والحافظة .. وأَهَّله ما منحه اللهُ من هذه المواهب ، وما حرَص عليه من القراءة ، وما كان له فى مدرسةِ الحياة من تجاربَ وخبرات . أهَّلَه ذلك كلُّه أن يبلغَ فى مستقبل حياته مستوىً رفيعًا من القدرةِ على الحديثِ ، والحوارِ ، والخطابةِ المثيرة المقنعة ، حتى قيلَ إنه كان أخطبَ خطباءِ ثورته . دخل الفتى الجيشَ وهو يستقبـلُ مرحلةَ الشباب ، وتولَّى فيه عملا كتابيا ، أحسنَ أداءَه ، ولكنه لم يقنَعْ به ، وتنبه إليه رئيسُه فى الفرقة الرابعة ، من « الآلاى الأولِ للمشاة » فألحقه بسلكِ الجنـد فى مرتبـة « جاويش » . وسُرَّ الشاب بهذه الانتقالة ، وأقبل يحملُ نفسَه على العمل الجادِّ الدائب فى دراسة التعاليمِ والنظمِ العسكرية ، والمَرَانة على مهامِّ الرتب التى يتطلعُ أن يرقَى إليها ، وسجَّل فى ذلك نجاحًا باهرا ، دلَّ على

نبوغه وامتيازه ، وقفز به إلى رتبة « قائمقام » فى أقلّ من أربع سنوات.وكانت قفزةً ملأت نفسَه ثقة واعتزازا ، وملأت نفوس الشركس فى الجيش غيظًا ، لأن فلاحًا شابا طفَرَ فى سُلَّمِه بسرعةٍ مذهلة ، حتى اقتربَ من وظائفه العليا المقصورةِ عليهم ، وهُم — فيما يرون — سادةُ الفلاحين العبيد ، وضاعف من غيظِهم أنه معتزٌّ بنفسه ، يحرِصُ على كرامته ، ولا يعرفُ الذِّلّةَ والهوان .

وأثارت هذه النظرةُ سخطَ « القائمقام » المصرى الشاب ، فكرِه منهم أنهم غرباء ، ينعَمُون بخير مصر ، ويحرمون منه أبناءَها ، ثم يحتقرونهم ، ويبالغون فى الاستهزاء بهم ، فإذا شتموا أحدًا قالوا : فلاح ! فلاح ! .. واشتدت هذه الكراهيةُ حين رأى الشركسَ يفرِّقُون فى المعاملة بين بنى جنسهم وبين المصريين ، ورأى من هؤلاء المصريين من يقابلُ غطرستَهم بالصمت والاستسلام .. وأخذ يسأل نفسه : متى تتغيرَ هذه الحال ؟ وكيف تتغير ؟!

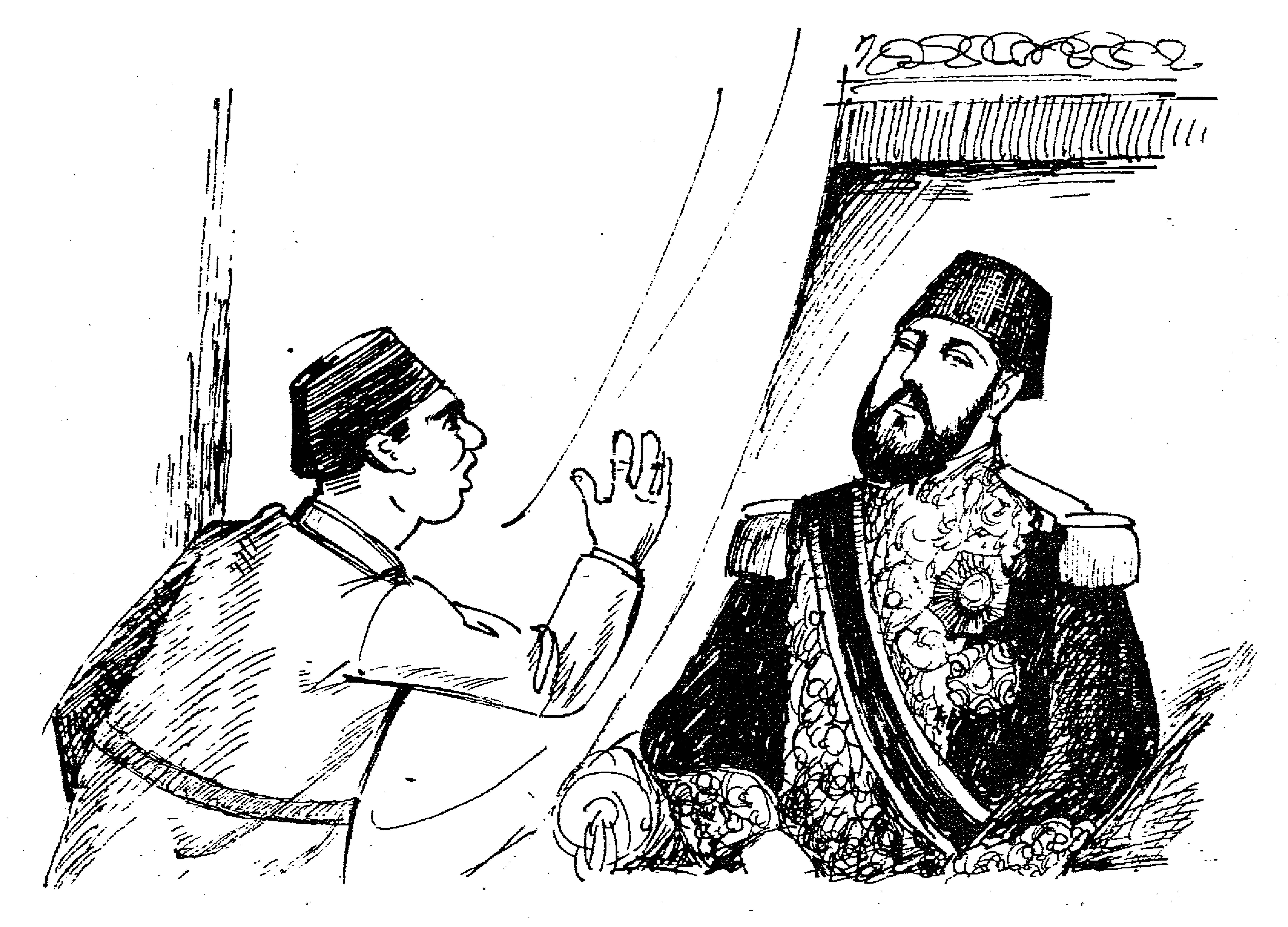
لم يفقد عرابى الأمل . لقد عرف أن « سعيدًا » حاكمَ مصرَ يعطفُ على المصريين ، وقد سمِعه يقول فيها :

« وحيث أنى أعتبر نفسى مصريًّا فوجب علىَّ أن أربىَ أبناء هذا

الشعب ، وأُهذِّبَه تهذيبا ، حتى أجعلَه صالحًا لأن يخدُمَ بلاده خدمةً صحيحة نافعة ، ويستغنَى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطَّدتُ نفسى على إبراز هذه الفكرة من الفكرةِ إلى العمل » .كانت هذه الخُطبةُ فرحةً شديدةً للمصريين ، وصاعقةً قوية على غيرهم من الدخلاء ، وخرج عرابى بعدها ، وقد وضحت فى ذهنه فكرةُ « مصر للمصريين » ، ورأى فيها السبيلَ الوحيد لإنصافِ أبنائها من الجنود والفلاحين وغيرهم .

أثر هذا الموقفُ من « سعيد » فى نفس عرابى ، فتقرَّب منه ، وأُعجِبَ سعيدٌ به ، فاختاره « ياوراله » فى زيارته للمدينة المنورة سنة ١٨٦٢ ، وكان اختيارًا أسعدَ المصريين ، وكبتَ الشراكسة .

وفى أثناء الرحلة أمسك « سعيد » كتابا ، وأخذ يقرؤُه باهتمام ، ووجهه ينبسطُ حينا ، وينقبضُ حينا ، ثم ألقى بالكتاب من يده ، وهو غضبان ، وراح يحدث نفسه ، ويقول : ما هذا ؟ كيف استطاع نابليون أن يهزمَ مصر بثلاثين ألفَ جندى ؟ ثلاثين ألفا ؟ ياللسخرية ! ونظر إلى عرابى ، وكأنه يريدُ منه أن يقرأ الكتاب ، ويفسرَ له هذا اللغزَ الذى حيره .



عرابى فى الثانية والعشرين يشرح رأيه للخديو سعيد .

التقط عرابى الكتاب ، فوجده مترجَمًا إلى اللغة العربية ، ووجد فيه حديثًا طويلًا عن فتح نابليون لمصر ، فأكبَّ على قراءته ، ولم ينم حتى أتمه ، وفى الصباح دخل على « سعيد » يخبره بأن نابليون فتح مصر بجنده المدربين المنظمين ، وكأنما أراد عرابى أن يدفعه إلى تنظيم الجيش المصرى وتدريبه .

(٤)

بوادر الثورة العرابية

انتفع عرابى كثيرا برحلتِه مع « سعيد » إلى المدينة المنورة ، فقد وضعته فى جوار « سعيد » ، وقرّبته من أهم مصدَرٍ للسياسة والحكم فى البلاد ، وأتاحت له فرصةً ذهبية ، يراجع فيها نفسه ، ويجدِّد خطته فى مواجهة المظالم الفظيعة التى يقاسيها أبناءُ مصر فى الجيش وفى الحقول وفى كل موقع يعملون فيه .. يقول أحد الإنجليز الذين كتبوا عن عرابى وثورته :

« كون عرابى آراءَه السياسيةَ الأولى فى أثناء هذه الصلة القريبة من « سعيد » ، وهذه الآراءُ هى المساواةُ بين طبقات الأمة ، وما يجبُ للفلاح من احترامٍ باعتباره العنصرَ الغالبَ فى القومية المصرية .. والدفاعُ عن حقوق الفلاح هو الذى جعل لعرابى ميزةً بين المصلحين فى ذلك العصر. عاد عرابى مع « سعيد » من هذه الرحلة ، وكان يعلق شيئًا من آماله بهذا الحاكم ، ولكن حياتَه لم تطُل ، وجاء بعدَه إسماعيلُ سنة ١٨٦٣ .

عرف الحاكم الجديدُ صلةَ عرابى بسلفِه ، فلم يطمئنَّ إليه ، ولم يقرِّبْه منه ، وبادله عرابى الشعورَ نفسه ، فلم يحاول التودُّدَ إليه ، ولم ينخدع به ، وزادت الأحداثُ شيئا فشيئا من إحساسه بخيبةِ أمله وأملِ مصرَ فى إسماعيل ، فقد كان يميلُ إلى الشركس ، ويمنحُهم من عطفه ما يبخل به على المصريين ، وكان خلقًا غريبًا .. يعلن أنه يعملُ لخير مصرَ وهو يقتلها بالديون ، ويزعم أنه يسعى لاستقلالها وهو يسوقُها نحو العبودية ، ويفخَر بأنه متحضرٌ ينقلُ لها مدنيةَ الغرب ، وهو لا ينقلُ من هذه المدنية إلا القشور ، ويتظاهرُ بحبه لحريتها وهو يستبدُّ بها ، ويُذِلُّ أبناءَها ، ويحكمهم بيدٍ من حديد .

أحب أن يجعلَها ، كما يقول ، قطعةً من أوربة ، فأسرف فى بناءِ القصور ، وتزيينها بروائع الزخارِف والنافوراتِ والتماثيل ، وملأها بالجوارى والوصيفات والمغنيات والراقصات ، ورأت بطانة السوء نَهَمه بهن ، فجلبتهن له من أنحاءِ الدنيا ، وزَحمت بهن قصورَه ، فكان ما أنفقه من الأموال عليها وعلى حفلاته بها أكثرَ مما أنفقه على نواحى الإصلاح فى البلاد .. وصحا من حياته الماجنة المدمرة مع بطانتِه ، فرأى المالَ قد قلَّ فى يده ، فمالَ على

المصريين يُرهِقهم بالضرائب ، ولكن لم يكفه ما جمع من ضرائب ، فأخذ يجمع ما يستطيعُ بالسلب والنهب والتعذيب والسياط ، ثم تناقص هذا المصدرُ ، فاتجه إلى بيوتِ المال الأجنبية ، يستدينُ منها بأفحش الفوائد .. ونظرت إنجلترا فوجدت فرنسا فى مقدمة الدائنين فأسرعت تزاحمها ، وانتهزت غفلةَ إسماعيل ، واشترت منه أسهم مصر فى قناة السويس ؛ وبذلك قفزت ديونُها قفزةً عالية ، وتهيأت لها فرصةُ التدخل فى شئون مصر .

كان « عرابى » يراقب الأحداثَ وهو فى أشدِّ الأسى ، وفى غايةِ اليقظة ، وكان يفكر فيها وفى أمر الجيش الذى يتحكمُ فيه الشركس ، ويصرح برأيه فى هذا الوضع الفاسد . غضب عليه رئيسُه الشركسى ، وتحداه ، حتى فُصِل ، وظل بعيدًا عن الجيش ثلاثَ سنوات . ثم شكا فَعُفِىَ عنه ، ولكنه حُوِّل إلى الأعمالِ المدنية .. لم يضْعُف عرابى أو يكفَّ عن كشف العسفِ الذى لَحِق به ، فأعيد إلى العملِ العسكرى ، ولكن كان عليه أن يذهبَ مع الفرقةِ المسافرة إلى الحرب فى الحبشة ، وكان هدف رؤسائه الشركس إبعادَه عن البلاد ؛ لعله يكفُّ عن كشف عيوبهم ، أو يموتُ فيستريحوا منه .

لم يمت « عرابى » بل عاد من الحبشة ، ليرى الأمورَ فى مصر قد انتقلت من سيئ إلى أسوأ ، فإنجلترا وفرنسا تشهِّران بإسماعيل ، وضعف مركزه الحالى ، وتعريضه أموالَ الأجانب للخطر ، وتضغطان عليه ضغطًا ثقيلا ، حتى يقبلَ إنشاء هيئةٍ لهم فى مصر ، باسم « صندوق الدين » ، ليحافظ على ديونهم ، ولا يعرضها للضياع ، وكان هذا فاتحةً مشئومةً للتدخلِ فى شئون مصر ، وتعيين وزيرين أجنبيين فى الوزارة المصرية ، أحدُهما إنجليزى للمالية ، والآخرُ فَرَنسى للأشغال .

وأحس عرابى الخطر ، ورأى أن إسماعيلَ الطاغيةَ قد حنى رأسه للأجانب ، وأصبح هدفًا لهم .. شجعوه على أن يستدينَ حتى وقع فى المصيدة ، ثم راحت إنجلترا تخوفهم منه ، وتتظاهر بأنها تدافعُ عنهم ، حتى يقفوا من ورائها فى لعبها الماكر به .. ونجحت فى حملتها عليه ، وأرغمته على أن يأتى بوزارة « نوبار باشا » ، وفيها الوزيران الأجنبيان ، وأدرك الخديو المسكينُ الخطرَ ، فقال فى حزن أليم :

« لقد احتفروا لى قبرى » .

راح عرابى يُنظِّم حركةَ المقاومة السرية فى الجيش ، ويُوحِّد

صفوفَ المصريين به ، وكانت بذور هذه الحركة قد نبتت فى حرب الحبشة ، وفى جو القهرِ والإذلالِ والتضحيات التى عاناها الجنودُ المصريون ، وهو فى مقدمتهم .. وبدأ العمل .. النفوس تغلى ، ونوبار يعمل للأجانب ، ويحاربُ المصريين ، وإسماعيلُ يكرهُ وزارة « نوبار » التى جاءت بالرغم من أنفه ، والجو مهيأٌ للوقوفِ فى طريق الخطر الذى تتعرض له البلاد . وبدأت أول خُطوة ، فشهد عام ١٨٧٨ حركةً للجيش لم يعرفْها من قبل .. انطلق عددٌ من الضباط بقيادة لطيف سليم إلى وزارة المالية ، وطالبوا بمرتباتهم المتأخرة .. فارتاع « نوبار » ، وأسرعَ للقائهم ، ومعه الوزيرُ الإنجليزىُّ ، فهجم عليهما الضباطُ ، وأمسكوا « نوبار » ، وانهالوا عليه يضربونه .. ورأى الخديو إسماعيلُ ذلك ، فأمر قائدَ حرسه بالقبض عليهم ، حتى يُبعِدَ الشبهة عن نفسه ، ولكن قائدَ الحرس كان من التنظيم المصرى ، فأشار بإطلاق النار فى الهواء .. واتُّهم « عرابى » ، ومعه ضابطان بتدبيرِ المؤامرة ، وقدِّموا إلى « البارودى » مأمور ضبطية القاهرة ، وكان ثائرًا ، فساعدهم ، وانضم إليهم سرًّا ، ووصلَ بينهم وبين الوطنيين خارجَ الجيشِ ، فكانت هذة الصلةُ أساسَ الثورة العرابية ، وقاعدةَ كفاحها الوطنى المخلص .

اهتزَّ « نوبار » هِزةً عنيفةً ، وسقطت وزارتهُ متأثرة بحركة الجيش وأراد الأجانب بقاءها فأبى إسماعيل ، ورشح إسماعيلُ نفسه لرياستها فأبى الأجانب ، وتملقهم ابنُه « توفيق » ؛ ليرضَوْا به رئيسًا لها ، فقبِلوا على أن يكونَ للوزيرين الإنجليزيِّ والفرَنسي حقُّ « الفيتو » فى الشئون المالية ، فلا يجرى فيها شيء إلا بأمرٍ منهما .

نظر عرابى ، فرأى قبضةَ الأجانب قد شلَّت الوزارة ، فزاد من اجتماعاته بالوطنيين خارجَ الجيش ، وعن أحد هذه الاجتماعات يقول :

« قبل أن نفترقَ اقترحت أن نتحدَ ونخلع إسماعيل ، ولو فعلنا ذلك لكان خير حلٍّ للقضية ؛ لأنه كان يسرُّ القناصل .. ثم كان يوفِّر على البلاد ما حدثَ بعد ذلك من تعقُّد الأمور . كما كان يوفِّر عليها تلك الملايينَ الخمسةَ عشرَ التى حملها معه حين خُلِع ، ولكن لم يكنْ من يقودُ هذه الحركة .. وكنا نستطيع أن نقيمَ حكومةً جمهورية » .

وهكذا عرف عرابى الطريقَ ، ولمح الفرصةَ ، ولكن زعامتَه لم تكن برزت ، حتى تنقاد الأمةُ له ، .. وقنِع فترةً بالعمل فى الخفاء ، ينظم قوةَ المصريين فى الجيش ، ويساندُ القوةَ الوطنية

خارجَه ، وشيئًا فشيئًا التقت القوتان ، فاشتد ساعدُ الأمة ، وظهر مجلسُ شورى النواب بعد أن كان معطلا ، وعلا صوتُه بعد أن كان خافتا ، وطالب بأن تكون الوزارةُ مسئولةً أمامه ، وأن يكون له وحده حقُّ الإشراف على أموال البلاد .

وإذا ذاك اهتز توفيق ، واستقالت وزارتُه ، وجاءت وزارةُ شريف ، فأيدت مطالب الأمة وأصبح الحكمُ بها دستوريا ، وكان ذلك نصرا غاليا لها ، من ورائه حركةُ الجيش والشعب .

(٥)

عرابى وأحداث قصر النيل

اصطدم الأجانب صدمةً عنيفة بعد أن عصفت الحركةُ القوميةُ بوزارة « نوبار » حليفِهم ، وجاءت بوزارة شريف التى ناصرت الحركة ، وأقرت الحكمَ الدستورى ، وعمِلت على شلِّ سلطان الوزيرين الأجنبيين .

وأحسَّ الإنجليزُ الخطر ، وشَعَروا أن مصرَ فى طريقها إلى الخروج من أيديهم ، فسعَوْا عند الخليفة لعزل إسماعيل ، وكان قد عَجَز عن إرسالِ الأموال له ، فخلعه ، وتولى ابنُه توفيق عرش مصر ، ووقفت الدنيا تضحكُ فى سخريةٍ من الابن الذى سعى مع الأجانبِ فى عزل أبيه ، ليجلس على عرشه سنة ١٩٧٩ ، وكان الثمنُ أن يقفَ معهم ، وينفِّذَ مطالبهم ... وهكذا تغير الجالسُ على العرشِ ، فاستقال « شريف » ، ثم عاد فألف وزارتَه الثانية ، ورحَّب به توفيق ترحيبَ الماكرِ حتى استقرَ فى منصبِه ، ثم أخذ يضربُ ضرباتِه الغادرة .

كان عرابىَ يفكر ، ويمعن فى التفكير .. لقد قهر بالتقائِه مع الوطنيين عواملَ اليأسِ والخوفِ التى كانت تسيطرُ عليهم ، فتحركوا ، وتجرءوا ، ووقف قادتُهم فى مجلس النواب مُصرِّين على مقاومةِ الأجانب ، وإقامةِ الحكم الدستورى . وقبلَ ذلك قهر اليأسَ والخوف فى نفوس المصريين فى الجيش ، فأحسوا بوجودهم ، وهبُّوا فى وجه « نوبار » حتى استقال .. وأصبح عليه أن يقهر ما قد يمر بخاطره من عوامل الترددِ فى الكشفِ عن نفسه ، حتى يواجهَ نوايا الإنجليز ، وضَعْفَ الخديو الذى أصيبت مصرُ به .. وراح يتحين الفرصةَ للعمل والنضال ، وجاءته الفرصة ... رجع « توفيق » عن وعودِه المعسولةِ للشعب ، وكشرَ له عن أنيابه ، فألغى الحكمَ الدستورى الذى ظَفِر به ، وأعادَ للأجانب ما طالبوا به من الإشراف على النظامِ المالىِّ فى مصر ، وأحرجَ وزارةَ شريف الثانية ، فاستقالَ ، وجاء بوزارة « رياض » ، لتضرب من يقفون فى وجهه . وكان عثمان رفقى وزيرُ الحربية فى وزارةِ « رياض » شركسيًّا متغطرسًا متعصبا ، فجعل أكثرَ الترقيات فى الجيش لبنى جنسِه من الشركس .. وراح يُعِدُّ القوانين التى تحرِمُ المصريين من الصعود إلى الوظائف العالية ،

وعزَل بعضهم ، وسمَحَ بتسخير الجندِ فى العمل بأرض الخديو ..

عارض عرابى عثمان رفقى ، فلم يرض عن تسخير الجند فى أرض الخديو ، والتقى فى بيته بمن عُزِلوا من مناصبِهم ومعهم بعضٌ من زملائهم ، فشَكْوا إليه مما حلَّ بهم ، وناشدوه أن يتولَّى الدفاعَ عنهم ، وأقسموا له قسمَ الوفاءِ والإخلاص على أن يفتدوه ، ويفتدوا الوطنَ العزيز بأرواحهم ..

استجاب عرابى ، وكتب « عريضةً » إلى رئيس الوزارة رياض ، تطالبُ بإقالة عثمان رفقى ، وتعيين غيرِه من أبناء مصر ، وإجراءِ تحقيقٍ معه فيما أصدرَ من ترقياتٍ وعزل ، ووقَّع العريضةَ ، ووقعها معه على فهمى ، وعبد العالى حلمى .

قرأ رياض العريضةَ ، فَذُهِل ؛ لأنه لم ير من قبلُ مثلَ هذه الجرأة فى مصر ، وفى ظل هذه الأسرةِ الحاكمة ، ونظر إلى الضباطِ الثلاثة ، وقال :

إن « عريضتَكم مهلكة ! ماذا تطلبون ؟ أتطلبون تغيير الوزارة ؟ وماذا تضعون مكانَها ؟ فأجاب عرابى فى جرأةٍ ودهشة : هل ولدت مصرُ ثمانيةَ أبناء ، ثم عَقِمت ، وكان يعنيه ، ويعنى وزراءَه السبعة .

وصمت رياض ، وفى صدره غيظٌ ، وعلى وجهه سحابةُ نفاق ، وأذِن لهم فى الخروج ، وقد استصدر أمرًا من الخديو بمحاكمتهم ، واتفق مع عثمان رفقى أن يسرعَ بالقبض عليهم ، تمهيدًا لمحاكمتهم وإعدامهم .

رجع الضباط الثلاثة والشكُّ فى « رياض » و « رفقى » يملأ عقولهم .. وفجأة تلقَّوْا دعوة من عثمان رفقى ، يدعوهم فيها إلى ديوانِ وزارة الحربية بقصرِ النيل ، للمشاركة فى الاستعدادِ لحفلات زفافِ إحدى الأميرات ، فأحسُّوا أن وراءَ هذه الدعوة خُدعةً لاصطيادهم ، وطلبوا إلى فرقِهم أن تسرعَ إليهم إذا تأخرت عودتهُم عن ساعتين .

وصح ما توقعوه .. ذهبوا إلى الوزارةِ فى أول فبراير سنة ١٨٨١ ، فلم يَرَوْا استعدادا لأى احتفال ، بل وجدوا أنفسَهم بين جنود الشركس الذين اندفعوا للقبضِ عليهم ، وانتزاعِ أسلحتهم ، وزجِّهم فى السجنِ مع سيلٍ من الشتائمِ القذرة .. وفى الحال انعقدَ مجلسٌ عسكريٌّ لمحاكمتهم .. وضَحِك عثمان رفقى ضِحكةً عالية ، فقد نجحت الحيلةُ ، وأصبحت نهايةُ عرابى وصاحبيه بين لحظةٍ وأخرى .. وهنا كانت المفاجأة ، فقد التفَّ

بدار الوزارة فريقُ حرس « عابدين » ، واقتحمها ، وحطَّم الأبوابَ والنوافذ ، وبحث عن الضباط الثلاثةِ حتى وجدهم ، ففك قيودهم ، وأطلقهم من سجنهم ، ثم سارع للقبض على من دبَّروا لهم المؤامرة ، ولكنه وجدهم قد لاذُوا بالفرار ، وفى مقدمتهم عثمانُ رفقى .. فذهب الفريقُ إلى قصر « عابدين » ، وهناك أدركه فريق « طرة » وتجمع الفريقان ، فكان منظرًا رهيبا ، زاغَ له بصرُ توفيق ، واشتد فزعُه واضطرابُه .

تماسك الخديو بالرغم من أن حرسه تحدَّاه ، وهبَّ لإنقاذ عرابى وصاحبيه ، وبالرغم من اهتزاز مكانتِه فى عيونِ الجيش والشعب ، وتظاهر بالشجاعة وأراد أن ينتقمَ من المتمردين فى رأيه .. ولكن رجالَه خوَّفوه من ثورَةِ الجيش عليه ، فتراجع على كُرهٍ منه ، ورأى أن ينحنَى أمام العاصفةِ حتى تمر ، فاستجاب لمطالبهم ، وزادَ ، فأقام حفلًا لرجال جيشه ، أعلن فيه عفوَه عمن أخطئوا من الضباط ، وصرَّح بأنه لا يُضْمِرُ لأحدهم أىَّ شر .

وكان لهذه الحركة أثرُها القوى فى حياة البلاد ، فقد فجرت الحماسةَ فى نفوس الجنودِ والشعب ، ورفعت منزلةَ عرابى فى عيون المصريين ، واستقبل الشعبُ بعدها فترةً شعَرَ فيها بفيضٍ من



اقتحام الجنود لقصر النيل

البهجة والعزة والكرامة ؛ فأبناءُ مصر فى الجيش وخارج الجيش يتجمعون ويتحدَّثُون الخديو نصيرَ الأجانب ، والوفودُ تتهافت على عرابى ، تهنئه بنجاته ونجاة صاحبيه ، وتهتف بحياته وحياة جنوده الأحرار ، وكلُّهم يرون أن أملا جديدا للأمة بدأ بظهوره ، ويرى هو أن فكرةَ « مصر للمصريين يجبُ أن تتحقق ، وأن آمالَ الأمة أصبحت أمانةً فى يده ، وأن عليه أن يقودَها ليحقق هذه الآمال ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بكل ما يملك ، حتى روحِه وحياته .

(٦)

عرابى وقوات الجيش أمام قصر عابدين

كان عرابى جديرًا بزعامة مصر ، وبأن يقودَ شعبها إلى حياةٍ أفضلَ بعد عصورٍ طويلةٍ من النسيان ، وقد أهَّلته صفاتُه لهذه الزعامة .. كان يملأُ العين بروعة تكوينه وبسطة جسمه ، ويملأ النفس بلقائه الجميل ، وابتسامته الجذابة ، وخطابتِه التى تشدُّ السامعين ، وحوارِه الهادئ الذى يجمع بين التفكير السليم ، والفصاحة ، والقدرةِ على الإقناع ، وكان مع ذلك كله فلاحًا صريحا متواضعا ، لم تغير الأيام من صفائِه واستقامة طبعه .

ومما يشبه المعجزاتِ أن يخرجَ من أعماق الريف فلاحٌ مثله ، يستطيع أن يواجهَ ما واجهه ، وينجحَ نجاحه .. قال عنه أحدُ الإنجليز . « أحبُّ أن أذكرَ أنه فى تاريخ مصرَ كلِّه لم يبرُزْ فى مدى ثلاثة قرون على الأقلّ فلاحٌ بسيط .. إلى أن يصبحَ ذا مكانةٍ

سياسية لها خطرُها ، أو إلى أن يصبحَ داعيةَ إصلاح ، أو إلى أن يهمسَ بكلمةٍ تدعو إلى الثورة».

* * *

ارتفع نجمُ عرابى فى سماءِ مصر ، ولمع حتى غطّى نورُه أظهر النجومِ فيها ، وظن الناس أنه لقَّنَ الخديو فى قصر النيل درسًا لن ينساه ، ولكن هذا الخديو لم يتخلَّ عن طبعه ، فراح يدبرُ مع « رياض » رئيس وزارته أخسَّ الدسائس لاغتيال عرابى وأصحابه ، ويفكرُ فى تفريقِ الجيش ونقلِ بعض فرقه إلى السودان ، ويحاربُ الدستور ، وعاد كالدميةِ المعلقةِ خيوطُها بأيدى الأجانبِ ، يحركونها كما يشاءون.. ولو أنه انضم إلى الحركةِ الوطنية لأنقذَ نفسه وعرشَه وبلاده .

استعد عرابى لمواجهته بصورةٍ أقوى وأروع ، فكتب إلى وزير الحربية ، يطلب إليه أن يبلغَ الخديو أن فِرَقَ الجيش ستحضرُ إلى ساحة قصر عابدين بعد ظهر يوم الجمعة التاسع من سبتمبر سنة ١٩٨١ ؛ لتُقَدِّمَ إليه مطالبَ الأمة .

ارتاع الخديو وحاول ردَّ عرابى عن عزمه ، فلم يُصغِ إليه ، فأمر فرقةَ حرسه أن تتحصَّن بالقصر ، وانطلق إلى الفرق الأخرى

يحاول منعَها من المسير ، ولكنها أبت ، ووضعت إحداها الأسنةَ فى البنادق لمواجهتِه ، فعاد إلى القصر ، فوجد الجيشَ قد تجمع أمامه ، وانسحب حرسُ القصرِ من مواقعهم ، وانضموا إليه . عادَ الخديو وأخذ يميلُ على المراقبِ المالىِّ الإنجليزى ، ويسأله :

ماذا أصنع ؟

فيهمِس فى أذنه : اضرب هذا المتمردَ بالنار ..

فيقول : كيف ، وأنا بين أربع نيران ؟! ويعنى بذلك فرقَ الجيش الأربع . ونظر فى خوف ، فوجدَ الجيشَ المستعدَّ ، والمدافعَ المسدَّدَةَ إلى القصر ، والكتلَ البشرية التى تجمعت فى الساحةفاضطرب وعاد يسأل مَن حولَه من الإنجليز ورجالِ القصر ، فشجعوه حتى تماسك ، وبرزَ للجيش ، فتقدم عرابى نحوَه ، وهو على ظهرِ جواده ، وسيفُه فى يده ، فأشار إلى عرابى ، فنزل ، وأغمدَ سيفه ، وحيًّا التحيةَ العسكرية .

سأله الخديو : ما أسباب حضورك بالجيش هنا ؟

أجاب : جئنا يا مولاى لنعرضَ عليك طلباتِ الجيش والأمة ، وكلها طلباتٌ عادلة .

ــ وما هذه الطلبات ؟

— : إسقاطُ الوزارة المستبدة ، وتشكيلُ مجلس نواب على النَّسَقِ الأوربى ، وإبلاغُ الجيش إلى العدد المقرر له ، والتصديقُ على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

— : كل هذه الطلبات لا حقَّ لكم فيها .. أنا ورِثت هذه البلادَ عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيدُ إحساناتنا.

— : لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقْنا تُراثا أو عقارا ، ولن نُستَعبدَ بعد اليوم .

ارتعد الخديو ، وهرولَ نحو القصر وهو يلهثُ ، وبَقِىَ أحد الإنجليز مع عرابى يحاول أن يخدعَه ، ويُخمِدَ حماستَه ، ثم عاد إلى الخديو ليشاركَ فى إلهاب نفسه على عرابى وصحبه ، ولكن الخديو كان أجبنَ من أنْ يواجهَ هذا الزعيم الفلاح ، ومن ورائه الجيشُ والأمة

خضع توفيق . فأقالَ وزارة رياض ، ووافق على زيادةِ عدد الجيش ، وعلى الحكم الدستورى ، والقوانينِ العسكرية ، وعَهِد إلى « شريف » بتأليف الوزارة فى الرابعَ عشرَ من سبتمبر سنة ١٨٨١ .

وعاد الجيش إلى ثُكُناته ، وقد حققَ لمصرَ آمالها ، وكانت ثورتُه بيضاء ، لم تُسْفَح فيها نقطةُ دم ، ولم تشوَّه بشىء يكدِّر



محاورة عرابى للخديوى

صفاءَها ، ومرت بمصر بعد هذا الحادثِ فترةٌ لم تَرَ مثلها منذ عهود سحيقة .. ملأت الفرحةُ القلوب ، وانزاحَ عنها الخوف ، وظهرت القومية المصرية بالتحام الجيش والشعب،وأخذ الناسُ يتبادلون التهنئة ، ويبشرُ بعضُهم بعضا بغدٍ سعيد باسم .. وذاع اسمُ عرابى فى أنحاء البلاد ، وكان الناس يسمونَه « البطل » ، و « الوحيد » ، و « المنقذ » ، ويرونه رجلَ مصر الذى بعثته العنايةُ الإلٰهيةُ لتحقيق أملِها فى حياةٍ حرة كريمة .

* * *

فى هذا الجو اندفعت وزارة « شريف » الثالثةُ إلى العمل ، واجتمع مجلس النواب كما طلب عرابى ، وبدأ فى إعداد لائحتِه ، وأحسَّ الإنجليز أن الحكمَ الدستوريَّ يهددُهم ، وينسِفُ حُلْمَهم فى أن يتخذوا من الديون والإشراف المالىِّ ثغرةً ، ينفذون منها إلى التدخلِ الكامل فى شئون البلاد .

وعندئذ أسرع المراقبان : الإنجليزىُّ والفَرَنسى ، فقدَّما مذكرةً إلى شريف ، يطالبان فيها بعدم إشراف مجلس النواب على « الميزانية » ، أو التعرضِ لشيءٍ يتصلُ بها . وتردَّدَ الخديو ، ثم عاد إلى طبعِه الخبيث ، فانحاز إلى الأجانب .. وانتظر الشعب موقفَ

« شريـف » ، ولكنـه جاء مخيبًـا لآمال المجلس ؛ فقـــد مال « شريف » إلى مجاملةِ الخديو ، ومهادنةِ الأجانب .

وردَّ المجلس الضربةَ بأقسى منها ؛ فقد اجتمع ووحَّد صفوفَه ، ووقف فى وجه الخديو وقفةً صلبة عنيدة ، أصرَّ فيها على إقالة وزارة « شريف » ، ولم يتزحـزحْ أو يتراجـع ، فاهتـزَّ « توفيـق » ، وخضعَ لمطلب المجلس ، وانزاحت وزارةُ « شريف » ، وجاءت بعدها وزارة « البارودى » أحدِ أبطال الثورة العرابية .

(٧)

صراع القوى المعادية للقومية المصرية

أُسنِدَت الوزارةُ إلى محمود سامي البارودى فى الرابع من فبراير سنة ١٩٨٢ ، وكانت تسمَّى « الوزارة الوطنية » ، كما كانت تسمى وزارة الثورة ؛ لأنها جمعت ثلاثةً من أعضائها ، وهم البارودى ، وعرابى وزير الحربية والبحرية ، ومحمود فهمى وزيرُ الأشغال .

وقد حققت هذه الوزارةُ أملَ الشعب فيها ، وأملَ المجلس فيما طالب به من نظامٍ دستورى ، يجعلُ له حقَّ الإشرافِ على الوزارة ، وحقَّ الرقابة على الميزانية ، ومحاسبةِ الأجانب . واجتمع هذا المجلسُ فى الثامن من فبراير سنة ١٨٨٢ ، واستقبلَ البارودى استقبالا مدوِّيًا ، عاصفا بهتافات النصر والعزة .

وقبع الخديوُ فى قصره ، وكان كما يقول المؤرخون : « طائرَ القلب ، حائرَ اللُّب مما يجرى حولَه ؛ فهوَ لا يحبُّ الحركة الوطنية ، ولا يستطيع أن يصالحَ عليها طبعه ، وهو فى شكٍّ من

نياتِ الخلافة فى تركيا نحو عرشه ، وهو فَزِعٌ من دسائسِ بعضِ الأمراء ضدَّه عند هذه الخلافة ، بل هو فَزِعٌ أيضا من دسائسِ أبيه ومساعيه فى مصرَ وتركيا » .

ولكن الأجانبَ أخرجوه من عزلتِه ، وشجعوه على مقاومةِ عرابى الذى اجتذب الناس فأنساهم صاحبَ العرش ، وملأ قلوبهم سخطًا وحقدا عليه ، وخوَّفه هؤلاء الأجانب من أنه يعملُ لكى يزيحَه عن عرشه ، ويتربعَ فوقه .. وصدَّقهم « توفيق » الخائف المخادع ، ولو أنه عرف طبيعةَ عرابى لأدرك أنه من أبعد الناس عن التفكير فى انتهازِ الفرص وتوجيهِها لمصالحه الذاتية .. عرض عليه البارودى هذا العرش ، وعاهده على التأييد والمناصرة ، فأجابه فى كلمات قاطعة : « مَهْ يا محمود باشا ، فأنا لا أريد إلا تحريرَ بلادى ، وليس لى مطمعٌ أصلا فى الاستئثارِ بالمنافع الشخصية » .

ومع نُبلِ عرابى وترفُّعِه قضى الخديو فترة ، وهو كدوَّارةِ الريح ، يدور نحو عرابى وآمال مصرَ مرة ، ونحو الأجانب أكثرَ من مرة ، واستغلَّ هؤلاء ضعفَه وترددَه ، واندفعوا كالشياطين ، يؤزُّون ولا يظهرون ، وكانت الفتنةُ الجديدة تتركز فى اغتيالِ

عرابى وزعماء حركتِه ، ولم يكن أصلحَ لهذه الفتنةِ من الشركس أعداءِ عرابى ، وأحرصِ الناس على قتله ، كما لم يكن أحدٌ أكثرَ منهم أمنًا إذا قاموا بها ؛ لأنهم رجالُ الخديو ، وحلفاءُ الأجانب فى نصرتِهِ والدفاع عنه . ودُبِّرت المؤامرةُ ، وحُدِّدَ لكل شركسيٍّ عملُه فيها ، وكادت تتمُّ لولا أن ضمير أحدهم صحا ، وأسرع إلى عرابى يخبره بها . وفى الحال أُلقِى القبضُ على أصحـــابِها ، وحوكموا ، وثبتت الجريمة ، فصدر أمرُ المحكمـة العسكريـة بتجريدهم من رتبهم ونفيهم إلى السودان ، وبينهم عثمان رفقى الشركسى المتغطرس .. ورُفِع الحكم إلى « توفيق » لاعتماده .. وكان المفروض ألا يترددَ فى ذلك ، ولكنه وقف حائرا .. يُلحُّ عليه الإنجليزُ أن يمتنعَ رفقًا برجاله فيميلُ إلى الامتناع ، ويخشى غضبةَ المصريين ، ويعرفُ فى أعماقه أن الحقَّ معهم ، فينزع إلى الموافقة .. وهنا وقف بين طريقين : طريقِ الوفاء لشعبه ، وطريق الغدرِ به ، ولم يكن الغدرُ جديدًا على أسرته التى بدأ كبيرُها بمذبحةِ المماليك . وأخيرا انحازَ إلى أعداء وطنِه ، وباع لهم نفسه على أن يقفوا إلى جانبه ، ويتولَّوْا حمايتَه ، وحمايةَ عرشه .

اطمأن الإنجليزُ إلى خيانته ، فراحوا يحركونه للضغط على

وزارة « البارودى » ، وضربِ الحركة الوطنية ، ولم يخيِّبْ أملَهم فى هذه الخيانة ، فصار يتلقَّى الأوامر منهم ، ويتحركُ كما يريدون منه ويرسمُون له.ضغط بكلِّ ثِقَله على وزارة البارودى لتستقيلَ ، ولكنها أبت ، وجمعت مجلسَ النواب للنظر فى أمر الخديو الخارِج على أمته ، وكان مما قرره المجلس فى الثانىَ عشرَ من مايو سنة ١٩٨٢ :

« إن الخديو إذا استمر على دسائسِه مع القنصلِ الإنجليزى لم يكن مناصٌ من محاكمتِه وخلعه ».

ارتعد الخديو ، وخشِىَ الإنجليز أن يسارعَ الوطنيون بخلعه ، وكانوا يعرِفون أنه مكروهٌ من كل طوائف الشعب ، وأنها سترحبُ بخلعه ، وإزاحةِ كابوسه عنها ، وأنهم سيفقدون بذلك الستارَ الذى كانوا يعملون من ورائه للتدخل فى شئون مصر .. جدَّ الإنجليز ، وسيطروا عليه ، وراحوا يعملون معه لضرب عرابى وحركته ، وكانوا يعملون فى طريقين : طريقِ الخداع والنفاق ، وفيه يعمل الخديو على إحراج « البارودى » ووزير حربيته « عرابى » ، بما يستطيعُ من الرِّشوة ، والإغراء بالمناصب ، والتخويف من مواجهة الإنجليز ، وقد تأثرت به بعضُ الصحف ، وانحاز إليه محمد سلطان رئيسُ مجلس النواب

وبضعةُ نفرٍ من أعضائه ، وطريقُ القوة ، وفيه ظهر عددٌ من السفن الإنجليزية والفرنسية فى مياه الإسكندرية ؛ لإرهاب « البارودى » و « عرابى » ومن معهم من القوى الوطنية ، وكان ذلك فى العشرين من مايو ، وبعد أيامٍ من قرار المجلس .

* * *

عرف الخديو أن السفنَ تغدو وتروح فى المياه المصرية ، ففرِح ، ولم يَلُمْ نفسَه على أنه مهدَ الطريقَ لغزوِ بلاده .. بل فرِح ، وانتفخَ ، وتشجع ، فأرسل محمد سلطان الذى انحاز إلى جانبه ، يطلب إلى « البارودى » و « عرابى » استقالة الوزارة ، فنظر الزعيمان إليه نظرةَ الدهشة والاحتقار ، واستعجبا من أن يصبحَ رسولًا للخديو ، وكان يتظاهرُ بالسخط عليه ، ورفضا الاستقالة . وجرب القنصلان : الإنجليزيُّ والفرنسيُّ أن يتدخلا فى شئون مصر دون وسيط ، فبعثا إلى عرابى ، يأمرانه بمغادرةِ البلاد ، وكانت ظاهرةً غريبة ، شجَّع عليها انضمامُ الخديو إلى الأجانب .. فرفض « عرابى » فى اعتزاز ، وسارعت الوزارة ، فعقدت اجتماعًا ضم أعضاءها وأعضاء مجلس الثورة ، وأقسموا

جميعًا على المصحف والسيف قسمَ الوقوف إلى جانبِ الثورة ، والوفاءِ لمبادئها ، وكان القسمُ أمام الشيخ « محمد عبده » الذى عُرِفَ بمناصرتِها ، والكفاحِ مع أعضائها .. وتعاهدوا على مقاومةِ التدخل الأجنبى ، وإن أدى ذلك إلى الحربِ المسلحة ..

(٨)

عرابى ومقاومته الحربية للدخلاء

استمر الإنجليزُ فى العمل على تصيُّدِ العلل التى تبررُ تدخلَهم المسلَّح ، فعاد القنصلُ الإنجليزيُّ ، وقدَّم مع القنصل الفرنسى مذكرةً ، يطلبان فيها أن تسقطَ الوزارة ، وأن يُنْفَى أحمد عرابى ، وأن يُبْعَدَ على فهمى وعبد العال حلمى من القاهـرة ، وتُحدَّدَ إقامتهما فى الريف » .

وتلقى « البارودى » المذكرة ، فرفضها هو وأعضاءُ وزارته ، ولكن الخديو قَبِلَها ، وكأنه لا يحس أنه فقد سلطتَه وكرامتَه ، وأن الإنجليزَ وضعوه فى جيوبهم ، فأصبحوا يفرضون ما يشاءون عليه ، ولا يتكلمون حتى باسمِه .

وكان الموقفُ يفرض على الثورة خلعَ « توفيق » ، وتوليةَ عرابى ، ولكن نبلَ البطل وترفُّعَه عن أن يقالَ إنه يعمل لنفسه من ناحية ، وما يجرى أمامَ بصرِهِ من لعب الإنجليز بالخلافةِ فى تركيا

والخديو والأجانبِ فى مصر من ناحية ثانية ، وخشيتَه من أن تشيعَ الفوضى فى البلاد من ناحية ثالثة .. كل ذلك منعه أن يفكرَ فى العرش الذى شوَّهه توفيق بذلتِه ومهانتِه .

استقال « البارودى » ، وأبى عرابى ، فلم يهتزَّ أو يتزحزحْ ، وصرح هو وزملاؤُه أنهم لن يستقيلوا إلا بأمرٍ من مجلس النواب . وعندئذ ازداد الخديو المتردد حيرةً ، وسارع إلى حلفائه الإنجليز يسألهم : ماذا يصنع ؟ فقدموا إليه « مصطفى فهمى » ليُسْنِد إليه الوزارة ، ولكن هذا أبى وأشفق منها ، فرجعوا إلى « شريف » ، ولكنه اعتذر ، وتقدم توفيق ليتولى رياستها ، ولكنهم منعوه ، لأنهم يعرفون فيه أنه ضعيفٌ ولا يستطيع أن يواجهَ أبناء مصر الأحرار فى الجيش وخارج الجيش . هز نبأ استقالةِ « البارودى » أنحاءَ البلاد ، فغلت النفوس ، وصارت فوق بركانٍ من الغيظ على الخديو ومن معه من الخونة ، وهتف جمعٌ من الضباط بزعماء الثورة :

« اعزلوا الخديو الذى دعا الأجانبَ للتدخلِ فى أمرنا وتهديدِنا بأساطيلهم ».وأفتى بعضُ العلماء بخلعه ، وذهب إليه وفدٌ من قناصل الدولِ الأجنبية يحذرونَه الخطَر على مصالحهم إذا أُبعِدَ

عرابى عن الوزارة ، وسارع إليه الأعيانُ برياسة محمد سلطان الخارج على الثورة يطالب بإبقاء عرابى حتى تهدأ النفوسُ الثائرة الساخطة .

حنى الخديو رأسَه ، ولم يمانعْ سادتُه الإنجليز أن يحنيَه مؤقتا ، وأسَند إلى « عرابى » إدارةَ شئون البلاد ، وجدَّ البطل ، فقضى على الفوضى التى كادت تهددها ، وكان الإنجليز يحبون أن يتخذوا منها مبررا للنزول بأرضها .

لم يخجَل « توفيق » من الذلةِ التى لحقته بإرغامه على إعادةِ عرابى ، ولم يستحِ القنصلُ الإنجليزى الذى عَجز عن أن يأتى بوزارةٍ جديدة تعملُ على إزاحة عرابى وإخفاء وجهه عن عيون الناس ، كما عجز أن يجد مبررا للتدخل .. وكان شديدَ الصفاقة ، كما يقول عنه أحد الأجانب :

« لو أن هذا القنصلَ كان على شيءٍ من الشعور بكرامةِ النفس لاستعفى من عملِه ، ولكن الرجلَ لم يكن يريدُ المحافظةَ على كرامةِ نفسه ، وإنما كان يريدُ إحداثَ التدخل المسلح » .

توهَّم بعضُ الناس أن الخديو قد تأثر بألم الصَفعات التى انهالت عليه من الشعبِ ورجاله الأحرار ، وأنه ربما أفاق ، وملَّ الجرىَ

وراءَ القنصل الإنجليزى ، ولكن كلًّا منهما تظاهر بالصمت وهو يعملُ فى الخفاء .. الخديو يحتال ليدفعَ من يستطيع من المصريين إلى خيانة عرابى والتخلى عن ثورته ، والقنصلُ يهيىءُ نفسَه وبلادَه للهجومِ المسلح على مصر .

وفجأة نشبت فى الإسكندريةِ معركةٌ بين « مالطى » ومصرى ، فى الحادىَ عشرَ من يونيه سنة ١٩٨٢ ، قُتِل فيها عدد غيرُ قليل ، أكثرُهم من الغرباء . وعندئذ تصايحَ الخونة بأن حياةَ الأجانب فى خطر ، وأن وزارةَ عرابى عاجزةٌ عن حمايتهم، وعن إقرارِ الأمنِ فى البلاد ، وأحبَّ القنصلُ أن يتخذَ ذلك مبررا للتدخلِ المسلح ، ولكنه لم ينجح ؛ لأن أصابع الاتهام كانت تشير إليه وإلى الخديو وأذنابه ، دالةً على أنهم من وراء هذه المؤامرة . لم يتوقف القنصل عن محاولاته ، ولم تهدأ بلاده ، بل جدَّت فى تمهيد الطريق لدخول مصر ، خادعت الدولَ الأجنبية ، فزعمت لها أنها تحافظُ على ديونها ومصالحها فى مصر . وطلبت إليها أن تعتمدَ عليها فى ذلك ، فتركت الأمرَ لها . ثم التفتت إلى فرنسا تخادعها حتى تزيحَ سفنَها من المياه المصرية ، بعد أن ظفِرَت منها بما تريد ، وانتفعت بمساندتها فى كلِّ موقف ، واستعانت بأسطولِها فى

المظاهرة البحْريَّةِ أمامَ الإسكندرية لإرهاب عرابى والثائرين معه ، وعرفت فرنسا ، ولكن بعد أن نجحت الحيلة . ثم تحوَّلت إلى الخلافة فى تركيا تُخَوِّفُها من عرابى وحركتِه ، وكانت حريصةً على أن تشدَّها إلى جانبها من ناحية ، وتبعدَها عن مصرَ من ناحيةٍ أخرى ..

وحانت الفرصةُ التى كانت إنجلترا تنتظرُها منذ أمدٍ بعيد .. الجوُّ خلا لها ، والخديو فى يدِها ، يحاربُ وطنَه معها ، ويناشِدُها أن تسرعَ فى العمل لإنقاذ عرشِه ، وبعضُ الخونةِ قد انضموا إليه وإلى الأجانب ، والخلافةُ غارقةٌ فى هزائمها ومشكلاتِها ، وعرابى وزعماء الثورة يَرَون ذلك كلَّه ، ويستعدون لمواجهته .

وبدأ العملُ السريع .. أشار القنصلُ الإنجليزى على الخديو فى الثالثَ عشرَ من يونيه سنة ١٩٨٢ أن يسافرَ إلى الإسكندرية ؛ ليكون فى حماية السفن الإنجليزية ، وقام بترحيل الأجانب منها ، حتى يأمنوا أخطار المعركة التى توشك أن تبدأ ، ثم عاد فأشار على الخديو أن ينتقلَ من قصر التين الذى نزل به إلى قصر الرمل ، ليكون بعيدًا عن نيران الحرب ، قريبًا من سفن الإنجليز . واستعدَّ قائدُ الأسطول الإنجليزى ونظر إلى المواقعِ المصريةِ على الشاطئ ،

فرأى الجندَ ينظمون مدافعهم ، فهدد قائدَ حاميةِ الإسكندرية ، وأنذره بأنه إذا لم يكفَّ عن تحصينِ هذه المواقِع فسيضربُ المدينةَ بمدافعه ، وكان من أسخف المبررات للحرب أن يهددَ العدوُّ بالضرب إذا حاول المدافعون حمايةَ أنفسهم ، ولكنه نظامُ الغابة ، وشريعةُ المعتدين الغاشمين .

وصمم قائدُ الأسطول أن ينفِّذَ ما هدَّد به ، وحدد لذلك صباحَ اليوم الحادىَ عشرَ من يولية سنة ١٨٨٢ ، وكان الخديو معه على الطريق .

رفضت مصر قبولَ الإنذار ، وهبت لتقف من وراء ابنها وزعيمها عرابى فى وجه الإنجليزِ والخديو الذى يساعدُهم على احتلال البلاد . سأله أحدُ رجال الجيش :

ــ ما مصيرُ الإسكندرية ؟

فأجاب : ستين سنة .. وهز كتفيه

ــ : لكن السكان سيحرقونها ..

ــ : فلتُحْرَق المدينةُ جميعا ، ولا تبقى فيها « طوبة » على « طوبة » .. حربٌ بحرب .. كلُّ الذى يقعُ على رأسِ عرابى وعلى رءوس الفلاحين ..

* * *

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم الموعود ضُرِبت الإسكندرية ، وانهالت عليها القذائف ، ولكن الدفاعَ المصرىَّ ردَّ بعنف ، وثبت بمدافعِه القديمة أمامَ مدافع الأسطولِ الحديثةِ القويةِ ساعةً بعدَ ساعة . وكان الخديو كما يسجل تاريخُه الأسود يهرولُ إلى سطح قصر الرمل ، ليَطمئِنَّ إلى نجاحِ حلفائه فى قصف المدينة وإسكاتِ مواقعِها الدفاعية .. وراعَه أن أهلَها قد انضموا إلى الجند ، ودافعوا عنها دفاعَ الأوفياء الشرفاء ، حتى سكتت المدافع المصرية .

وكان الخديو يظن أن البطلَ سيسلِّم ، وأن الإسكندريةَ لن تقف معه ، ولكن خاب ظنه ، ففكر فى خدعةٍ يسلمُه فيها إلى الإنجليز ليقتلوه ، وأمَرَه بلقائهم فى منطقة « العجمى » بالإسكندرية . وعرف عرابى الخُدعَة ، فلم يقعْ فى الفخ ، وعزله الخديو فلم يتخاذلْ ، ولكنه وجد نفسَه بين خطتين : إما الاستسلام الذليل ، أو الحربِ الكريمة ، فاختار الثانية ، وأسرعَ إلى « كفر الدوار » يُحصِّنُ مواقعَه بها . ورأت الأمةُ ذلك منه فهبت لمناصرته ، فى صورةٍ شعبيةٍ رائعة ، لم يشهدْ تاريخُ مصرَ لها مثيلا .. اجتمع عظماءُ مصرَ فى جمعيةٍ عمومية ، ضمَّتْ بعضَ

الأمراء ، والأعيانَ ، والعلماءَ ، وبطريركَ الأقباط ، وحاخامَ اليهود ، وقررت هذه الجمعيةُ عدمَ الاكتراثِ بكلامِ الخديو ، أو الاعترافِ بعزله لعرابى .. وأفتى كبارُ رجال الدين بانحرافه عن الإسلامِ ، وحِلِّ عصيانه .. ووضع الجيشُ قواتِه رهنَ إشارته ، وبادرت المديرياتُ لتكونَ طوعَ أمره ، وتهافت عليه المتطوعون ، وانهالت عليه معوناتُ الشعب من كلِّ مكان .. وكان أشبهَ بالمعجزات أن يكوِّن جيشَه ، ويكفلَ له أقواتَه ومطالبَه ، بغيرِ قرشٍ من خِزانة الأمة ، لأن الوالىَ الذى أصيبت به يحاربُها ، ويقفُ ضدها .

وحارب عرابى فى « كفر الدَّوَّار » ، فرد هجماتِ الإنجليز ، وكبَّدهم خسائر فادحة ، كما حاربَ فى « التل الكبير » ، ووقف فى وجههم وقفةً صُلْبة ..

وكان ينتظره النصر ، ولكن هزمته العهودُ الكاذبة ، والغفلة الغبية ، والخيانة الوضيعة الأليمة ، .. عاهده الفَرَنسيون على أن تكون مِنطقةُ القنال خاليةً من الحرب ، حتى لا تتوقفَ الملاحةُ فى القناة ، ونظر ، فوجد السفن الإنجليزية تدخلُها ، وتصبُّ نيرانَها على قواته ، واطمأن إلى أن الخليفةَ فى تركيا يقفُ إلى

جانبه ، ثم صدمه هذا الخليفة بغفلتِه ، فأصدر تحتَ ضغطِ الإنجليز وخداعِهم بيانًا بعصيان عرابى . وتلقف الخديو البيانَ ، فنشره بين الجند، وفى صفوفِ الجيش، وأخيرا تعرَّض لغدر قواده الذين باعوا نفوسهم للخديو والإنجليز ، بما قُدِّم لهم من الرِّشوةِ والأموالِ الخبيثة الباهظة ، ففتح هؤلاء الخونةُ الطريقَ لجندِ الإنجليز فى جوف الليل، فهجموا على عرابى ورجاله ، وكان من أخطر هؤلاء الخونة عبد الرحمن حسن ، وعلى يوسف الشهير بلقب «خنفس»... وأمام هذه الصدمات رأى عرابى أن يكفَّ عن الحرب، حتى لا يعرضَ وطنه للمزيد من ويلاتها .. وحوكم عرابى ، فنُفِى ، وصودرت كلُّ أمواله .. وظن الجهال والحاقدون أنه خرج من كفاحه بغير شىء ، ولكنه خرج منه بالكثير الذى سجله له التاريخ فى أنصع صفحاته .. فقد سجل له :

.. أنه الفلاحُ ابنُ الفلاحِ الذى ظهر فى « هرية رزنة » ، وخرج منها وهو مجهولَ أو كالمجهول ، وثقف نفسه بنفسه ، وقهر فيها عوامل الخوف والضعف والتردد ، ثم وهبها للكفاح فى سبيل مصر ، حتى لمع نجمُه فى سمائها ، وأحبه أبناؤها وتوجته

زعيمًا لها ، وقائدًا لمسيرتها ، وودت لو جلس على العرش مكان الخائن الجالس عليه .

● وأنه القائدُ الذى نقل المصرىَّ فى الجيش من حياةِ اليأس والاستسلام إلى حياةٍ جديدة ، شعر فيها بعزتِه وكرامته ، ودافع عنهما دفاع الأقوياء الأحرار .

● وأنه الزعيمُ الذى أطلع فى ظلامِ الريف فجرَ الحرية ، فصحا الفلاح على نورها ، وأدرك أنه ليس عبدًا ، وأن له وجودا وحقوقا ، ونهض ليدافع عن وجوده وحقوقه فى ثورة سمعت بها الدنيا ، وعرفها الناس فى كل مكان.. وأنه المكافحُ الذى ظهر بفضل كفاحه المتصل معنى الوطنية المصرية والقومية المصرية ، ومهد بذلك للقضاء على كل صور الاستعباد.. وأن ثورتَه كانت أمَّ الثورات فى تاريخ مصرَ الحديث ، وكلُّ ما ظفِرَت به من حريةٍ وعزةٍ وكرامةٍ كان مبنيا على تلك الثورة المبكرة .. بل لعلها قد أثَّرت فى حياة إفريقيةَ وفى الشرق ، وحققت الكثير مما كان يحلمُ به عرابى فى قوله : « قد فتحنا بابَ الحرية فى الشرق ليقتدىَ بنا من يطلبُها .. ولعلها فجرت الثوراتِ التى قضت على أحلام

الاستعمار ، وجعلت الإمبراطوريةَ البريطانيةَ التى كانت لا تغيب عنها الشمس مملكةً محدودة ، تغيب عنها الشمس كما تغيب عن سائر الدول على وجه الأرض . وتلك آثارٌ خالدة ، سيظلُّ تاريخ مصرَ يرويها للأجيالِ بعد الأجيال .

رقم الإيداع : ٨٧/٢٥٠٦
الترقيم الدولى : ٨ - ٠٢٩٥ - ١١ - ٩٧٧

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

١ ـ حافظ إبراهيم	١١ ـ محمد كريم
٢ ـ محمود سامى البارودى	١٢ ـ عمر مكرم
٣ ـ عباس محمود العقاد	١٣ ـ عبد الله النديم
٤ ـ أحمد عرابى	١٤ ـ الإمام محمد عبده
٥ ـ طه حسين	١٥ ـ محمد طلعت حرب
٦ ـ مصطفى كامل	١٦ ـ قاسم أمين
٧ ـ سعد زغلول	١٧ ـ الشيخ على يوسف
٨ ـ على مبارك	١٨ ـ سليمان الجوسقى
٩ ـ محمد فريد	١٩ ـ عبد الرحمن الكواكبى
١٠ ـ جمال الدين الأفغانى	

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى ـ الفجالة
ت : ٥٩٠٨٩٢٠

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ١٠٠ قرش